الفصل الثانى

ليلة ميلاد الصدمة

الداية والضوء الخافت

سمعت روايات كثيرة لمن شهدوا هذه الليلة.. ليلة ميلاد الصدمة التى نَزلتُ فيها إلى الدنيا نزولًا أثار العجب لهذا الشكل غير المعهود، وأستطيع أن أصف ما حدث كأننا نشاهده لحظة بلحظة، ولعل التفاصيل هنا تعطى إشارات ولمحات وصورًا كاملة لما حدث من مواقف وماكان من مشاعر ولحظات الثبات ولحظات الخور التى تنتاب الإنسان وقتما يفجؤه الحدث أو تنتابه لحظات صعبة أو يحدث أمامه ما لم يكن يتوقعه.

وأبدأ هنا بالغرفة التى كان معلق فى جانب منها اللمبة البنور نمرة عشرة، تلك التى يتخلل نورها بين ظلام الغرفة فيبدو النور حولها قويًا وخافتًا فى جنبات الغرفة الأخرى حيث تجلس الداية «ستى خضرة»، هذه العجوز التى يبدو فى وجهها رضا وفى كلماتها طيبة مصحوبة فى نفس اللحظة، بيدها تحنو على من تكلمه، أقول هذا الكلام عنها لأنى عاصرتها بعدما كَبُرتْ وصرت طفلًا ورأيت هذا بعينى قبل أن ترحل.

وأستطيع أن أصف ما حدث فى هذه الليلة من هذه السيدة الطيبة الوقور ومعها مساعدتها «دولت» التى شربت من معين طيبتها ومن إناء خبرتها؛ فأصبحت معها فى كل ولادة تتعلم وتتقن وتجرب حتى أصبحت خبيرة بهذا الفن، فن إخراج إنسان من إنسان آخر على سُنة الخالق المبدع، الله سبحانه. وفى الغرفة أيضًا بعض النسوة الأقارب لأمى منهم الحاجة مبروكة خالتها وزوجة أبيها. وأخذت أمى تمشى فى الغرفة واضعة يدها أسفل ظهرها ومقدمة بطنها بما تحمله أمامها، وقد ارتسمت على وجهها علامات الألم ونزغات الوجع الذى تعبر عنه بصك أسنانها ببطء وتدعو بين الفينة والأخرى «يارب يارب»، وجميع من فى الغرقة يعبر عن التضامن معها بكلمة مطمئنة أو ببسمة أمل ونظرة تشجيع تخرجها من جو الألم، أو تقوم إحداهن وتمسك يدها وتمشى بها فى الغرفة، أو تحكى الداية عن فلانة التى لم تحس أبدًا بالولادة وأنها ومولودها الآن فى أحسن حال هى ومن ولدت، فتبعث برسالة اطمئنان إلى قلب الأم التى تنتظر نفس اللحظات الصعبة.

وخارج الغرفة، فى ساحة البيت الصغيرة أو ما يسمى بالدهليز، تتجمع الخالات تحملن حسن وياسر، حسن عمره سنتان وياسر عمره سنة، يجلس معهم الأب الذى يأكله القلق، ليس أمامه إلا التسبيح لله سبحانه وتعالى كى يثبت القلب ويهدئ النفس ويكبح جماح القلق وقام يتوضأ وصلى ركعتين وجلس جلسته ينتظر ماذا يأتى به القدر، وإن كانت الولادتان السابقتان فى منتهى السهولة علَّ هذه الولادة تكون كذلك، وأخذ يطمئن نفسه بهذه الخواطر التى تزور باله فى هذا الوقت.

لحظات الصدمة الأولى

عندما اشتد وجع الولادة بدأت الأم تخرج أنفاسها بعد أن تملأ بها

صدرها ثم تدفعها لتدفع به المولود وكأنها تدفع ثقلًا من أعلى إلى أسفل، وأخذت الداية تشجعها وتشد أزرها بكلمات معهودة فى هذه اللحظات مثل «قولى يارب». وامرأتان كل واحدة منهما تمسك يدًا والأم تحاول أن تدفع، وفى نفس شديد وصرخة متمكنة تدفع المولود إلى أسفل كأنه أمر يرفع عنها كل هذا الألم وكل هذا العناء بفرحة النزول. وها هو ينزل على يدى الداية، وجميع العيون فى الغرفة ترقب اللحظة الأولى لهذا القادم الجديد، فمنهن من ترى من قريب كالداية ومساعدتها، ومنهن من ترى من بعيد كاللاتى يمسكن يدى الأم ومن كانت تجهز المياه للأم بعد الولادة، وعيونهم تترقب لحظة النزول والأم تنتظر أن ترى مولودها الجديد.

وفى هذه اللحظة سكت الجميع وخيم وجوم وصمت مطبق وفتحت الأفواه جميعًا، ولم يشق جدار هذا الصمت إلا صراخ المولود يعلن عن حياة له على الأرض أصبحت، عن قدرة على التعبير يظهرها صوته الصارخ فى فضاء الغرفة. وبعد لحظات قليلة خرجت من فم الداية ـ بعد أن تماسكت وثبتت ـ البسملة وأخذت تردد: «بسم الله ماشاء الله»، ولما وجدت الوجوه الحاضرة قد ألجمتها صورة المولود نظرت نظرات فيها غضب لكل الحاضرات. ولما رأت الأم كل من فى الغرفة قد التزم الصمت وعلى وجوههن نظرة العجب، وبدأت هذه الوجوه فى نفس هذه اللحظات ترسل لها نظرات المواساة وكأننا فى مهمة عزاء وليس فى فرحة ولادة. وفى لحظة صاعقة شديدة انطلق صوت صراخ من الحاجة مبروكة، وكأن المولود قد مات فنهرتها الداية وطردتها من الغرفة.

ماذا يحدث؟... تتساءل الأم ـ فى تعجب ـ إذا كان صوت المولود

يملأ أنحاء الغرفة إذًا فهو حى فلماذا إذًا تصرخ خالتها الحاجة مبروكة؟ ولماذا تطردها الداية؟ ولماذا هذه النظرات الحزينة؟ وأين الفرحة الواجبة فى هذه اللحظات؟ وسألت الداية ومساعدتها ماذا حدث؟ فطمأنتها وقالت إنه مولود جميل فطلبت الأم أن ترى المولود.. فترددت الداية الحكيمة ومساعدتها التى ربتت على كتف الأم وأخذت تقسم لها أنه بصحة جيدة وأن وجهه يدل على أنه مثل أخويه حسن وياسر فلم تطمئن الأم، هنا حملت الداية المولود وأعطته لأمه ووضعت مساعدتها ذراعها من خلف الأم كى تعتدل فى جلستها حتى تستطيع أن تحمل وليدها. وكانت الداية قد لفت المولود بلفائف كعادة أهل الريف بحيث لا يظهر منه إلا وجهه، ونظرت الأم إلى وليدها الذى نزل توًا وأحدث كل هذا الصمت فرأت وجهه وجه طفل أبيض الشكل كأخويه مكتمل أعضاء الوجه ويصرخ صراخ المولود توًا، ثم رفعت لفافة من اللفافات فظهر جزء من بطنه، مازالت الأمور تسير سيرها العادى، ثم رفعت لفافة أخرى لتجد المفاجأة المذهلة وصورة الصدمة.

أين يداه؟ أين كفه الذى ينتهى بأصابع؟ أين ذراعه؟ ما هذا؟ كل هذه الأسئلة وردت على بالها فى نفس اللحظة، لكن أعاد لها الأمل أنه يتحرك وأن شكله هو شكل إنسان طبيعى وأن صوت صراخه يملأ أنحاء الغرفة فأعادت النظر والفحص مرة أخرى، ورفعت اللفافة التى تحيط بصدر المولود فوجدت الذراع اليمنى عبارة عن قطعة من اللحم تتحرك بإرادة المولود، طولها لا يتعدى بضع سنتيمترات قليلة تنتهى بثلاثة أصابع تتحرك مع تحرك الذراع القصيرة، وفى الذراع الشمال نفس هذا الوصف، إلا أن هناك أصبعين وليست ثلاثة. فنظرت الأم الملتاعة

إلى وجه الداية ومساعدتها وكل من فى الغرفة وكأنها تسأل؟ ما هذا؟ فرد الجميع بالصمت، ولم يستطع أحد أن ينظر إلى الأم فى هذا الموقف العصيب، وأصبحت جميع الوجوه فى الغرفة حائرة ينظر بعضهم إلى بعض ويهرب من لقاء وجه الأم الذاهلة حتى لا تبكى من هول ما رأت فهى لم تستوعب الشكل، ولا تريد أن تصدق بل تتمنى أن لو كان حلمًا وستفيق منه بعد قليل، فبرغم أنها توثقت بعينيها لكنها مازالت فى وقع حدث لم تعمل له حسابًا ولا خطر لها فى يوم على بال، والداية ومساعدتها تواصلا عملهما فى تجهيز أمور ما بعد الولادة الخاصة بالأم والمولود.. ومرت هذه اللحظات قاسية على الأم التى كانت قد أعدت نفسها لاستقبال مولودها الثالث الذى يشعل فتيل الفرحة بعد أن انطفأت بموت آمنة سيدة البيت وعمود الخيمة فيه، وها هى تتمنى وجودها فى هذه اللحظة بحكمتها وخبرتها.. لكن هل يستطيع زوجها ابن آمنة ووالد هذا المولود أن يكون بديلًا عنها أو تلميذًا فى مدرسة الأم آمنة.

ثبات أب...

حكى لى أبى هذا الموقف بكل تفاصيله وكيف كان الموقف صعبًا، لكن فى الوقت نفسه حكى لى كيف يحمى الإيمان صاحبه، وماذا يفعل الثبات فى المواقف الحرجة فى نفوس من يعايشون الحدث، ومَنْ يكون واجبًا عليك أن ترفعهم من وهدة اليأس وتنقذهم من سقوط الفكر والعقل وترغبهم فى تلك اللحظة فى رحمة الله الواسعة حتى ولو كنت مهمومًا مصدومًا..

عندما صرخت الحاجة مبروكة صرختها داخل الغرفة أحس الأب أن

شيئًا ما ليس طبيعيًا حدث بالداخل، وهو على الباب يسمع بكاء الطفل وصراخه إذًا فالأم قد أصابها شىء، ولكنه يسمع همهمات الأم ثم سمع كلامها وهى تسأل الداية: ماذا حدث؟ ولكنه لم يستطع أن ينتظر فإذا بالحاجة مبروكة تخرج من الباب وكأنها تهرب ممن يلاحقها فتهيب أن يسألها لأن شكلها يوحى بشىء ما غير سعيد بالداخل، فاستجمع قوته وضرب الباب بيده ودخل.

رأى عبد السلام خالته خضرة الداية، هذه السيدة الحكيمة الطيبة، سيدة الموقف، ثم نظر إلى زوجته الوالدة فقرأ الذهول مكتوبًا على صفحة وجهها، ورأى الحيرة وقد تملكت كل الحاضرين، ثم أرسل عينيه إلى المولود الذى يخرج صوته مكتومًا بعد أن كان منطلقًا، وكأنه كان يرى كيف كان الاستقبال له فَتَبَدَّى ذلك فى صوته المكتوم، سأل بصوت متهدج ماذا حدث؟ لتجيبه الداية وسط صمت الجميع: ولد هاتسميه إيه؟.. فنظر إليها نظرة المستفهم عما يرى أمامه من ذهول وحيرة فأمسكت بالمولود ووضعته على يديه، وما أن حملت يداه الولد حتى أحس بشىء ما من الأمان والسكينة قد حلت فى أنحاء نفسه، لكنه فى نفس الوقت أحس بأن شيئًا ما مختلفًا فى هذا الولد، هنا سأل الداية، فلم تستطع أن تجيبه، فرفع اللفافات فوجد ما رأت زوجته منذ قليل.

هنا ثبت الأب ثباتًا يقول هو عنه لم أعرف من أين جاءنى هذا الثبات، فقام بطبع قبلة على جبين هذا الطفل ثم ضمه إلى صدره وسلمه إلى زوجته التى اقترب منها وقبَّل جبينها وربت على كتفيها وأفسح مكانًا لنفسه بجوارها وراح يمطرها بوابل الأمن والسكينة والثبات، وقال لها أمام الجميع ممن كانوا فى الغرفة بوجوههم الحائرة: «الله الذى خلقه

والله هو الذى يوفقه فى حياته، لا تخافى».. فى هذه اللحظة بكت الأم فأمسك بها وأخذها فى صدره وأخذ يربت على كتفيها ويطمئنها، وتحول جميع من فى الغرفة إلى جانب الزوج، تحاول كل منهن أن تدلى بدلوها فى زرع الأمل بقلب الأم بعد أن رأوا أمامهم قوة الأب وثباته. ثم قام الأب والطفل على يديه فمشى به فى الغرفة وهو ينظر إليه ثم وضعه بنفسه بجانب أمه وترك الغرفة وذهب مباشرة إلى المسجد الذى يقابل البيت.

أراد عبد السلام أن يخلو بنفسه وبربه فى هذه اللحظات الصعبة، فتوضأ ثم دخل إلى ساحة المسجد ووقف يجهز نفسه للصلاة، ونوى أن يصلى ركعتين علهما يرفعان عنه ما أهمه مما رأى وعاين من مفاجأة ثبته الله فيها أمام الناس، لكن رغم ذلك فهو يحتاج إلى قوة يعلم يقينا أنها هنا فى المسجد وفى هاتين الركعتين اللتين يعلم أنهما لرفع الهم والحزن، ورفع يديه إلى أذنيه يدفع بهما نزغات النفس وأوهام الشيطان وكبر «الله أكبر» ودخل فى الصلاة. وأثناء سجوده جادت عينا الأب المكلوم بدمع دافئ، فراح يبكى على أعتاب رحمة الله، وانطلق لسانه بهذه الكلمات: «يارب أنت خلقته بهذه الصورة وأنت الذى بيدك أمره فأعنه وساعده وأعنا وساعدنا يارب».. وظل يردد ويدعو «يارب يارب» عدة مرات، وهو كان ينطق بالكلمات يستدعى شكل الطفل أمامه وهو ساجد حتى انتهى من الركعتين.. وبعد أن سلم عن اليمين وعن الشمال أحس بهدوء قد اعتراه وسكينة قد ملكت عليه كيانه وكأن الرسالة قد وصلت وكأن الركعتين قد آتتا أكلهما، فخرج من المسجد بغير الشكل الذى دخل به.

ها هو عبد السلام يدخل إلى البيت ومازالت آثار الصدمة مطبوعة على وجه كل من فيه حتى الأطفال الصغار. فدخل على زوجته ومن معها

فى الغرفة وقد رسم على وجهه بسمة وفرحة وتفاؤلًا، كان ذلك واضحًا فى قسماته التى أضُاءت بفعل الركعتين، وأقسم أمام الجميع أنه على يقين أن الله سوف يعينه.. وضرب لهم مثلًا بطه حسين الذى كان قد سمع عنه، هذا الذى كان أعمى ومع ذلك كان وزيرًا وكان أديبًا كبيرًا، وأخذ يتكلم والكل ينظر إليه فى حالة الذهول التى مازالت حاضرة، لم ينج منها إلا الداية ستى خضرة التى أنهت عملها، وها هى تغادر المكان بعد أن أنهت مهمتها التى لم تشاهد مثلها فى حياتها، وربتت فى حنان وود على كتف الأم، وأخذت ابن أختها عبد السلام فى يدها وخرجت به خارج البيت وأخذت تملى عليه ما يفعله مع زوجته فى هذه الأيام الأولى وألا يتركها وحدها وأن يساعدها فى كيفية التعامل مع الطفل وأن يقويها فى هذه المحنة وأن يتفقا على كل مايلزم هذا الطفل فى شئونه، وأمسكت بيده بقوة وعيناها فى عينيه وكأنما تقول له أثبت وكن رجلًا وودعته وذهبت.

اسمه رضا...

فى هذه الأثناء بدأ الأمر يشيع، وبدأت الألسنة تتحدث عن هذه الولادة الغريبة وهذا الطفل الذى ولد بهذا الشكل الذى لم يُعهد له مثيل من قبل. بدأت ردود الفعل بالشارع الذى كنا نسكن فيه، فجاءت النساء لتطمئن على الأم ولترى هذا المولود الذى أحدث هذه الضجة، وكانت الأم لا تسمح لمن يأتى لزيارتها برؤية مولودها، بل كانت لا تسمح لواحدة منهن أن تقترب منها.. وتحكى ـ رحمها الله ـ وتقول: «كنت أحس أن منهن من جاءت لترى وتشاهد، ومن جاءت للزيارة والاطمئنان». وتحولت وداد بحيث أصبحت كالقطة التى لا تسمح لأحد أن يقرب ولدها، وأما

صاحباتها اللاتى كانت تربطها بهن علاقات حب وصداقة فكانت تفتح لهن قلبها وتبث لهن ما تعانى من ألم وما ألم بها من حزن وخوفها على مستقبل هذا المولود الجديد. وكانت صاحباتها ينقلن لها ماكان يحدث بالخارج وما يشاع فى القرية.

وكان هذا الحدث فى 20 يولية عام 1964 فى قرية من قرى مصر، حيث كانت الخرافة هى المسيطرة على عقول الناس فى ذلك الوقت، كالجنية التى تخرج من الترعة وتكلم الفلاحين بالليل وهم يروون أرضهم، وادعى أحدهم أنه رآها تمشط شعرها على شاطئ هذه الترعة وأنها كانت تراوده عن نفسه، والعفاريت التى تخرج بالليل، فدخل المولود الجديد فى هذا الفضاء كمادة للخرافة! وأشيع بأن زوجة عبد السلام قد أنجبت ولدًا بلا يدين ولا رجلين!!! ومن قال إنه ليس إنسانًا وإنهم لا يعرفون كيف يتعاملون معه، ومن قال إن أمه لا تريده وتتمنى أن يموت، وأنها ترفض أن تقترب منه وأنها ستتركه حتى يموت وحده، ومنهم من تَزَيَّد وقال أنها ولدت ولدًا أشبه بالإنسان لكنه ليس إنسانًا.. كانت هذه الأقوال والشائعات التى يتناقلها الناس تنتهى إلى سمع الأم عن طريق صاحباتها وجيرانها المخلصين. وكانت امرأة معينة من القرية هى التى تشيع معظم هذا الكلام، بل وتجلس مع الناس لتردد هذه الشائعات التى تكذبها حقيقة الطفل.

وتحكى أمى التى عشت معها ثمانية عشر عامًا لم أجدها خلالها طرفًا فى خصومة ولا شجار ولا عداوة مع أحد، وتقول: خرجت بعد فترة النفاس بعدة أيام لكى أشمَ نَفسى، وجلست بجانب بائعة للخضر والفاكهة كان اسمها «أم ريشة» وباركت لى بأدب وذوق على المولود الجديد، وبعد

لحظات رأيت هذه السيدة التى كانت تطلق هذه الشائعات عن ابنى، عندها تمالكت نفسى وهممت بالانصراف، وما أن اعتدلت وجدتّها أمام مشنة البائعة ووجهها فى وجهى وهى تقول لى: «هو أنتِ خلفتى ولد بدون أيدين ورجلين» فإذا بى أتحول إلى إنسانة أخرى لا أعرفها، لأرى فى تلك اللحظة أمامى ماكان يقال لى من شائعاتها التى تروجها عن ولدى فأمسكتها من شعرها وجذبتها إلىَّ جذبة شديدة فاستسلمت لى وجررتها وقلت لها: «تعالى لتريه لتغلقى فمك تعالى لترى طفل عادى وليس كما تشيعين» وقذفتها بعيدًا عنى، وأخذت البائعة التى كانت معروفة ومشهورة بطيبتها وحسن كلامها تمطر هذه السيدة بكلمات التشفى لأنها سمعت منها الكثير من هذه الشائعات وأخذت تطيب خاطر أمى. وقالت لى أمى: «وكأن هذه الواقعة كانت رغم أنها غريبة على شخصيتى المسالمة إلا أنها علمتنى كيف أحافظ على ابنى وكيف أدافع عنه وكيف أن حبى لهذا الولد قد تعرض لاختبار، وأحسست أننى قد نجحت فيه أيما نجاح حتى ولو كان عنيفًا بعض الشىء لكن أظنه كان مناسبًا».

وبعد بضعة أيام وبعد أن مرت لحظات وأيام الصدمة الأولى تردد السؤال عن اسم المولود، فقيلت عدة أسماء، قالها من كانوا يجلسون مع أمه، ثم دخل الأب فنظر الجميع إليه وسألوه بماذا تسمى المولود؟ فقال سنسميه «رضا» فاستحسن الجميع الاسم ورأوا أنه اسم على مسمى، وقال لهم الأب هذا رضا من الله ونحن نعلن بالاسم عن قمة الرضا بما جاد به الله علينا بهذا الولد، وحتى يكون له بعد ذلك علامة على رضانا عن الله عل الله يرضى عنا وعن هذا الولد وأن يرضيه فى الدنيا والآخرة.. ولما سألت أبى عن ذلك قال لم يكن فى بالى هذا الاسم ولكن كان تعبيرًا عن رضائى التام والمطلق عن قدر الله الذى سيكون ـ حتمًا ـ هو خيرًا لنا وله.

ليالٍ قاسية

بعد أن انفض الناس من حول الأب والأم، وبعد أن أصبحا وجهًا لوجه أمام هذا المولود والابن الثالث فى أسرتهما، وقد أصبح إنسانًا لابد أن تهيأ له حياته وأن تذلل له الصعاب وأن يعيش كما يعيش أى طفل فى سنه، دارت بعض الأمور ببالهما وهما يجلسان على السرير وبجانبهما الوافد الجديد وأخذا يرددان مع بعضهما هذه الأسئلة التى تبدو طبيعية فى مثل هذا الموقف: إذا كان طول كلٍ من الذراعين بضعة سنتيمترات كيف سيلبس ملابسه؟ وإذا كان الولد العادى تمسكه الأم من تحت ذراعيه فكيف تمسك به؟ وإذا كان الطفل العادى يمسك الأشياء بيديه فكيف يمسك بها هو؟ وإذا كان الطفل العادى يمسك القلم بيده فكيف يمسك القلم ويكتب به وكيف يتعامل مع الكتب؟ وكيف يأكل؟ وكيف يشرب؟ وكيف؟ وكيف؟

وفى هذه اللحظة، وكأن الطفل كان يستشرف القادم فى بطن الغيب، إذا بيديه القصيرتين تنفضان الغطاء الرقيق الملقى عليه ويحاول أن يحرك يديه ويظهر أثرًا لأصابعه الثلاث فى يمناه وأصبعيه الاثنين فى يسراه من خلال الكم الطويل الذى يخفيهما. وظل الأب والأم ينظران إلى هذا المشهد البديع وكأنها رسالة تحوى أملًا فى القادم من أيام هذا الطفل. وكانت مهاراته التى حباه الله بها تتكشف يومًا بعد يوم وكانت تهون قسوة الأيام والليالى وتجعلها تقل شيئًا فشىء، إذ كان كل يوم يحمل جديدًا فى شخصيته.

ودائمًا ما كانت تحكى أمى ـ رحمها الله ـ عن أول مرة تغسل جسمى تقول إنها تهيبت وخافت أن أسقط منها أو لا تستطيع أن تتحكم فى

جسمى، وبعد تردد أخذت القرار وأعدت إناء الماء الدافئ والصابون وخلعت ملابسى بعد أن أحكمت إغلاق باب الغرفة والشباك، كانت هذه أول مرة ترى الطفل منذ ميلاده وهو عار تمامًا، إلا وأحست بشعور مزدوج فى وقت واحد، شعور بالخوف عليه إذ كيف يكون طفل بهذين الذراعين اللذين لا يستطيع أن يقضى بهما حاجات طفل عادى، وكيف يدبر بهما أمور حياته؟ وكيف يتواصل مع الناس ومع زملائه؟ وكيف يتعلم؟ كل هذا يتردد فى نفسها وهو بين يديها ينعم بالماء الدافئ. لكن الشعور الآخر كان بالاطمئنان عليه أولًا لأن الله موجود ولأن يديه القصيرتين دائمًا ما كانتا تتحركان يمينًا وشمالًا، وتكاد كل واحدة منها لا تهدأ أبدًا فى إشارة إلى إرادة الحياة عند هذا الولد التى لا يعلم سرًا لها إلا خالقها سبحانه وتعالى. وفى تلك اللحظة يطرق باب الغرفة طارق يبادر بالنداء عليها، فتعرف أنه أبوها محمد مرسى فتنادى عليه وتقول له تعالى وأغلق الباب بسرعة، فدخل جدى محمد إلى الغرفة ورأى حفيده الصدمة لأول مرة فسمى الله وقال بسم الله ما شاء الله، لكن عندما تملى فيه أراد أن يطمئن ابنته وقام وقبله وهو بين يديها، لكنه لم يخف حزنًا بدى فى قسمات وجهه وفى جفنى عينيه اللذين أُسبلا فى تلك اللحظة، لكنه أقسم بالله أن مثل هذا الولد سيكون له شأن عظيم لأن من خلقه هو الذى سييسر له أمره.

وبعد أن أخذ رضا حمامه الأول على يدى أمه فى هذه الغرفة التى شهدت لحظات ميلاده الصعبة، وأخذ والدها يحكى لها عن هؤلاء الذين سمع عنهم من بلاد الغرب الذين كانت لهم ظروف أصعب من رضا ومع ذلك كانوا عظامًا، وقال لها إنه سمع فى الراديو عن فتاة أمريكية اسمها هيلين كيلر كانت صماء وعمياء وبكماء ومع ذلك نجحت فى

حياتها وأصبح العالم يتحدث عنها، فردت الأم كيف وهى عمياء وبكماء وصماء فأقسم لها أنه سمع هذا فى الراديو وقال إن شاء الله رضا يكون حاجة كبيرة لكن يحتاج تعب منك ومن أبيه وأنا لو عشت سوف أذكرك بهذا.. وانتهى هذا الموقف لكنه ترك أثرًا طيبًا فى نفس الأم عندما علمت بأن أشخاصًا بهذا الشكل الأصعب والموقف الأقسى ومع ذلك كان لهم شأن، فربما شاء الله لابنى أن يكون له شأن، فكانت تنظر إليه ويتصارع داخلها الشكل الذى تراه والمستقبل التى تتمنى أن يكون مشرقًا لهذا الطفل... لكن فى كل الأحوال هى قد أعدت نفسها لمهمة صعبة ليس فقط مع رضا لكن بجانبه أخويه حسن وياسر فهى فى معركة متعددة الميادين فليعنها الله.

دعاء المضطر والدكتور رمزى فرج

يهرع المتدين الذى ارتبط بالقرآن ارتباطًا وثيقًا إليه فى الملمات، يجرى لكى يحتمى بآياته وقت المحن، يرتله ويتأمله ويتدبر آياته ويعيشه لكى يجعل منه وقاءً لما يلم به. كان هذا أحد الأشياء المهمة التى تعلمتها من أبى ـ رحمه الله ـ وقد حكى لى أنه بعد ولادتى كان كثيرًا ما تهاجمه الأسئلة التى لا يجد لها جوابًا على الأقل فى اللحظة الحاضرة، لأنه لا يعلم ماذا فى بطن الأيام سيولد بعد... ثم إن الضعف البشرى يفرض سيطرته على العقل، فيضحى العقل ضعيفًا عندما يواجه بأسئلة لا يدرى لها جوابًا، فكان فى هذه اللحظات يهرع إلى القرآن. وأثناء قراءته فى سورة النمل أخذ والدى يتأمل بعض الآيات التى بدأت بقول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا

كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴾ وعلى مدى عدة آيات بعد ذلك تنتهى كل آية بهذا السؤال الاستنكارى، وقد وقف عند آية منها تقول: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ هنا بعد أن قرأ والدى هذه الآية وتأملها دمعت عيناه وكأنه يدعو إلى الله دعاء مضطر يرجو رحمته بهذا الصبى، وكأنه يدعو الله أيضًا ببقية معنى الآية والتى تقول: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، فالله قادر على أن يجعل هذا الولد يومًا من البارزين الناجحين وقادر على أن يفتح له القلوب وأن يمهد له الطرق وأن يزرع محبته فى قلوب عباده، هنا يمكن أن يكون خليفة فى الأرض كما تقول الآية. هكذا كان والدى فى هذا الأمر يفزع إلى القرآن ليحتمى به.

وفى يوم من الأيام فاتحت أمى أبى فى ختان الولدين حسن وياسر، وكانا قد أمهلا هذا الموضوع لما بعد ولادتى، والختان فى الريف فى هذه الفترة كان يعد أحد الأفراح التى تقام للأطفال سواء جرى عقب الولادة أو جرى بعد مرور سنوات قليلة منها، فاتفقا على إجراء الختان للولدين ويدخل معهم رضا حتى تنجز المهمة كاملة، واتفقا مع من يقوم بهذه المهمة فى البلد ـ ولم يكن طبيبًا بالطبع فى هذا الوقت ـ وكانت هذه عملية جراحية كاملة بلا أدنى شىء من مخدر حتى ولو موضعى، بل كان هذا الرجل يمسك بقطعة الجلد ويفصلها عن العضو تمامًا ثم يقطعها بموس أو شفرة يضعها فى المطهر أولًا. وتكون هذه اللحظة من أقسى اللحظات فى حياة الطفل الذى يمسكه عادة أحد أقاربه لأن أبويه لا يستطيعان أن يحضرا هذا الصراخ الدامى للطفل الذى تُقطع منه قطعة من جسده وهو حاضر العقل

كامل الإحساس، ثم يوضع الطفل مفتوح الرجلين حتى لا يلمس الجرح الذى جمد دمه قليلًا الفخذين، إذ لو حدث لمس من أى شىء فإنه سينزف. وأخذوا الأولاد الثلاثة وأمسكوا بهم جيدًا حتى لا تنزف جروحهم التى لا تزال رطبة قابلة للنزيف فى أى لحظة، وظل هذا الوضع عدة ساعات حتى تجلط الدم وخلد الثلاثة إلى النوم.

وبعد يوم دامٍ قُطعت بالموس والشفرة فيه زيادات الأطفال حتى يصبح الطفل نظيفًا فى هذه المنطقة الحساسة من جسده، ولو أنها تتم بشكل لا يليق بالإنسان ولا بتحضره، ولكن الزمن والثقافة والوعى والحرمان من التعليم كان لا يتيح إلا هذا الشكل من أشكال الحياة. وما إن وضع الأب والأم رأسيهما بجانب الأطفال حتى راحا فى نوم عميق استيقظا منه على صراخ رضا صراخًا يوحى بألم يتوجع منه، فقاما بسرعة وكشفا على الجرح فكانت المفاجأة الدم يملأ المكان الذى ينام عليه بعد أن أصبحت اللفافة التى حول وسطه مليئة بالدم، بل إن الدم بدأ ينزل من المرتبة التى ينام عليها نقطة نقطة، وفى تلك اللحظة سأل الأب نفسه ماذا يفعل فتذكر أنه كان فى البيت مطهر فأخذ يضعه على الجرح، ولكن الدم مازال ينزف فلبس ما وجده أمامه من ملابس، فسألته زوجته إلى أين فرد إنه سيذهب إلى الدكتور «رمزى فرج» فعجبت كيف؟! أفى هذه الساعة المتأخرة من الليل؟! ومن سيخرج معك والطريق مخيف وما بيننا وبين قويسنا صحراء قد يكون فيها شىء يضرك.. فقال لها سوف أجرى إليه وحدى ويحدث ما يحدث، المهم أننى أصل إليه، وخرج يملؤه الفزع ـ كما حكى لى بعد ذلك ـ من صورة الدم الذى يسيل من ابنه وأخذت الوساوس فى مهاجمته وهو يجرى، تحدثه بأنك لا تلحق به وسينتهى أمره قبل أن تأتى بالدكتور، ويمكن أن يرفض الدكتور أن يأتى

معك، كل هذا كان يدور فى نفسه وهو يجرى فى هذا الطريق الذى يخافه أى سالك له فى الظروف العادية فما بالك بهذا الوقت من آخر الليل، ولكن الأب عندما يرى خطرًا على ابن له فهو ينسى الخوف ولا يفكر إلا فى النجاة يأتى بها بأى ثمن حتى ولو المخاطرة بنفسه ليحفظ الحياة لفلذة كبده.

وظل والدى يجرى حتى وصل إلى بيت الدكتور رمزى فرج ووضع يده على جرس الباب وظل يكرر ذلك عدة مرات، حتى خرج إليه الدكتور بنفسه يلبس روبًا فوق بيجامة النوم، فلما رآه وكان يعرف أبى من خلال أخوى ياسر وحسن اللذين كانا فى السنتين الماضيتين من مرضاه الدائمين، فاعتذر الوالد له عن مجيئه له فى هذه الساعة المتأخرة من الليل، ولكن الأمر جد خطير وأن هذا الولد بين الحياة والموت وحكى له ما حدث بعد ما دخل الوالد فى غرفة ملحقة بالبيت والدكتور رمزى يستمع بإنصات، ثم قال له: إن هذا الولد قد ولد بشكل معين وبإعاقة فى يديه، فكأن هذا شجع الدكتور على تلبية الطلب الذى كان مستعدًا له، ودخل يبدل ملابسه وعبد السلام يفرك يديه ويرفعهما إلى السماء يارب اكتب لنا وله الخير واشفه يارب.

وخرج الدكتور رمزى من غرفته وذهب إلى الجراج وأخرج السيارة، وجلس الوالد بجانبه والدكتور رمزى فى هذا الوقت من الستينيات هو الدكتور الوحيد تقريبًا فى مدينة قويسنا الذى يعرفه جميع الناس لأنه كان مدير إدارة الصحة فى قويسنا، وكان مسيحيًا يعامل الجميع بمعاملة واحدة بنفس الأسلوب الذى عامل به والد رضا، وكان يتمتع بصفة الأناة والصبر على المريض.. لعله كان يعرف أن المجتمع الذى يعيش فيه ومعه كان مجتمعًا فقيرًا لم ينل أبناؤه قسطًا وافرًا من التعليم لذا كان رفيقًا بهم، وكانت عيادته الكائنة إلى الآن باسم ابنه من أشهر الأماكن فى قويسنا لأنها كانت تواجه

مركز الشرطة وبجانب مدرسة المساعى ومسجدها، وكان هو ذا قامة طويلة وجسم مملوء ووجه يشبه زكى رستم الممثل الكبير.. وأخذت السيارة تطوى الطريق حتى وصلا إلى البيت، فدخل الوالد يفتح الطريق للدكتور ودخل إلى حيث يرقد رضا وكان يمسك بحقيبة جلدية تحوى أدوات الجراحة، فتحها وبدأ يتعامل مع الصبى الذى ينزف وظل حوالى ربع الساعة حتى أنهى ما جاء له وأعطى بعض النصائح للأم وطمأنهم عليه وحث الأم على رضاعته حتى يعوض ما نزل من دم.

ثم اتجه د. رمزى إلى والد الطفل وكأنه يستفهم، ففهم الوالد ووضع يده بحذر ورفع اللفافة عن صدر الطفل فرآه الدكتور فلم تَخُطّ الدهشة طريقها إليه وبدا وكأنه لم يَرَ شيئًا عجبًا بل ثبت وذهب ووراءه والد رضا إلى السيارة، ونظر إليه وطمأنه وأخذ يشجعه ويضرب له مثالًا يعرفه كل المصريين وهو الدكتور طه حسين وكيف أصبح وهو كفيف من عظماء المفكرين والأدباء، وحثه على الاهتمام بهذا الولد الذى سيصبح له شأن فى المستقبل. وسأله الوالد لماذا ولد بهذا الشكل وبهذا النقص، وليس فى العائلة من الجانبين أحد ولد بهذا الشكل؟ فبين له أن هذه طفرة لا علاقة لها بالوراثة وأن هذه قدرة الله سبحانه وتعالى وأنها تحدث قليلًا جدًّا جدًّا، وقد أراد الله أن يختبرك، ولعل الله يجعل من هذا الولد بعد ذلك رجلًا ذا شأن. وظل د. رمزى يسأل عنى ويذكر والدى بهذه الليلة وخاصة عندما تفوقت فى الابتدائية وعلم بذلك، فطلب الوالد وذكره بهذا الموقف وطلب منه أن يواصل اهتمامه بهذا الولد الذى أنقذته العناية الإلهية على يديه.